

## اصل الشرائع والقوانين

للناس في البحث عن اصل الشرائع والقوانين والعوائد والاخلاق والعلوم والصنائع اساليب مختلفة فبعضهم يعتمد على الحدس والتخمين فيرى في الامر رأياً ويترجم انه عرف حقيقته او انه كوشف بها وهو اسلوب اكثر القدماء ومن حدا حدوهم من المتأخرين . ولا شيء من اقوالهم وآرائهم ينوي على الانتقاد والتصحيح لانهم لم يتكلموا بالبحث ولا وقفوا على الحقائق . وبعضهم يعتمد على ما يراه في كتب الاقدمين وما ينسب اليهم سواء كانت تلك الكتب حقيقيّة أو موضوعة وهذا الاسلوب ليس اقرب الى الحقيقة من الاسلوب الاول لان الاقدمين لم يكونوا ادنى الى العصمة من غيرهم وقلما ينسب اليهم شيء وكانوا هم اصحابه بل الغالب ان اهالي القرون الوسطى كانوا يضعون الاقوال وينسبونها الى الاقدمين . وما احسن ما قاله العلامة ابن خلدون في اكثر ما كتبه الاقدمون فقد قال "ان اخبار القرون الماضية من قبل العرب العاربة يتبع اطلاعنا عليها لتطاول الاحقاب ودروسها الا ما يقصه علينا الكتاب ويؤثر عن الانبياء ويوحى اليهم وما سوى ذلك من حطام المفسرين واساطير النقص وكتب بدء الخليفة فلا نقول على شيء منه وان وجد لمشاهير العلماء تاليف مثل كتاب الباقوتية للطبري والبدء للكساني فانما نحمل فيها معنى النصاص وجروا على اساليبهم ولم يلتزموا فيها الصحة ولا ضمنوا لنا الوثوق بها فلا ينبغي التعويل عليها وترك شأنها " الا انه لم يلبث ان نحا معنى اولئك النصاص فسخن تاريخه بامور لا تصدق

وللتأخرين اسلوب حديث للبحث عن اصل الشرائع والقوانين وكل دعائم العمران وهو استفراء احوال الامم الحاضرة متحدثها ومتحدثها والاستدلال باحوال المتوحشين على مبداء العمران واحوال دعائمهم . ونضرب لايضاح ذلك كلوه مثل رجل رأى سفينة بحاربة كثيرة الآلات والادوات فخر البحر المخصم وهبها بامواجه وتياراته ولم يكن قد رأى سفينة بحاربية ولا شرعية ولا فاربا يجري على ظهر الماء فسأل عن مثل هذه السفينة وكيفية وجودها فقال له بعضهم ان الهام من الآلهة اغناظ من البحر وامواجه فخلق هذه السفينة ليركبها الناس ويرغموا بها انب البحر ويكسروا كبرياءه . وقال آخر حدثني ابي عن جدي عن فلان عن فلان انه كان للملك من ملوك الروم فتاة بارعة الجمال فاحبها مارد من مرده الجمان وخطبها وسار بها في الآفاق العبيدة فغزن ابوها عليها ولم يجد الى السلوى سبيلاً وكان عنده صانع ماهر

فصنع له سفينة تجري في البحر بقوة البخار وركب معه فيها وذهبا ينتشاش عن ابطو قرأها  
اهالي اوربا وامعنوا نظرم فيها وتعلموا منها انشاء السفن البخارية  
وقال آخر تعال معي فأريك كيف نشأت هذه السفينة وادخله داراً فسيحة رُتبت فيها  
السفن بحسب ارتفاعها من الارماث التي تظنوعلى وجه الماء لحتبتها الى القوارب الجوفة  
بالنار الى السفن ذات المجاذيف الى السفن الشراعية الى البواخر والبوارج الكبيرة . ورأى  
البواخرية مندرجة من اول باخرة صنعها فلتن الاميركي الى آخر باخرة اجتمعت فيها بدائع  
الصناعة وعجائب الاختراع وكل منها ارتى من التي قبلها واتقن صنعاً ولو بشيء طفيف .  
فرأى لاول وهلة ان السفينة التي شاهدها على سطح البحر قد ارتقت ارتفاعاً مندرجاً من قطعة من  
الخشب ظنت على وجه الماء وركبها احد اسلافنا المتوحشين فحملته وسارت يوم مع التيار  
الى ان صارت تشق عباب البحار وتستغني عن الشراع والمجذاف بقوة البخار . وعقل الانسان  
هو المبتدع لانكاملها المتزايدة ارتفاعاً وبده هي الصانعة لادواتها المتزايدة اتقاناً . واذنا طاف  
مالك الارض وساح بين اقوامها المختلفين في درجات الحضارة رأى هذه السفن كلها على  
انواعها وانكاملها لم تزل مستعملة عدم فاقلم حضارة يستعملون الارماث والقوارب الجوفة  
بالنار وارقام عمراننا يعتمدون على اكثر السفن البخارية اتقاناً ولو بقي عدم بعض السفن  
الشراعية وبعضهم يستعمل الانواع كلها لانه لم يمس على اختراع السفن البخارية مدة كافية  
لاهل السفن القديمة وانقرانها

فلا يخفى ان هذا الاسلوب الاخير اصح الاساليب لمعرفة الماضي والوقوف على اصل الشرائع  
والقوانين والعلوم والننون . وعليه اعتماد اكثر الباحثين في هذا العصر فتراهم يقابلون بين  
اخلاق الامم وعواظهم واعمالهم ويحسون البسيط الماذج اصلاً للركب المتقن وبينون  
كيفية نشوء الواحد من الآخر بطريقة معنولة تستلزم التصديق وتدعو الى الاقناع  
وهذا الاسلوب لا يسلم من الخلل لان الارتفاع الى البلدان الشاسعة كثير المشقة  
لا يقدم عليه الا قليلون ولا يمكنهم ان يقيموا في تلك البلدان مدة كافية لتعلم لغات اهلها  
والنظر في اخلاقهم وعواظهم واعمالهم بعين التروى . ولكنه اقرب الى الحقيقة من الاسلوبين  
السابقين واصلاح خلل غير متعذر بزيادة التحقيق والتحجيص ولذلك اعتمادنا عليه في ما يلي  
وقد يظن لاول وهلة ان الاقوام المتوحشة والقبائل الضاربة في البوادي غير مرتبطة  
بشرايع صارمة ولا هي مساواة عما تعمل . والواقع على الضد من ذلك فان الذين ساكوا  
اولئك الاقوام وعاشروهم وشافوهم مجمعون على انهم مرتبطون بعوائد حاكمة عليهم حكم

الشرائع الصارمة وهم خاضعون لها صاغرين لا يجدون مناصاً منها ولا يستطيعون نقضها بوجه من الوجوه . وعندهم من الامر والنهي ما يقدم في كل اعمالهم ولو كانت غير مكتوبة . وهذا ايضا شأن الشعوب الذين عندهم شيء من الحضارة محكومة بغيرو باميركا الجنوبية كانت نبعت رجالها الى كل بيت من بيوت رعاياها لترى ما اذا كانوا قائمين بما تفرضه عليهم من حيث تنظيم بيوتهم وتربية اولادهم . وحكومة مداغسكير كانت تعاقب بالموت كل من ينتقل من بلاده الى غيرها بدون اذن منها . واهالي يابان بقوا الى عهد قريب ينامون ويقومون ويأكلون في اوقات مفروضة لا يجوز تعديها ولكل يوم من ايام الشهر طعام خاص لا يجوز اكل غيره فيه فلا يجوز اكل دود الحرير في اليوم الاول ولا اكل الذرة في اليوم الثاني ولا السكر في الثالث ولا الخبز في الرابع ولا البطاطا الحلوة في الخامس ولا الارز في السادس وهلم جرا . والتبود اشد من ذلك على الشعوب المتوحشة . قال المستر لانغ في كلامه على اهالي استراليا الاصليين انهم خاضعون لاحكام وقوانين وعوائد صارمة ظالمة لا اظلم منها على وجه البسطة وبها يكون الضعيف في قبضة القوي عرْضاً ودماً ومالاً والصغير في قبضة الكبير . وشرائعهم تحرم الطبيبات على النساء وتحلها للرجال وتحرمها على الصغار وتحلها للاكبار . والرجل الكبير يتزوج سبع نساء والشاب لا يستطيع ان يتزوج بواحدة ما لم يكن له اخت يفايض عليها باخت رجل آخر ويجب ان يكون قادراً على حمايتها والاعتناء بها غيره منة . وانا اصطاد احد الاستراليين صيداً لم يحل له اكله لانه منبذ بحسب شرائع بلاده ان يعطي الرأس لاحد اعضاء عائلته والصدر لآخر وهلم جرا وياخذ هو النصيب المعين له بحسب تلك الشرائع

واذ قد تهتد ذلك نظري في بعض الشرائع المرعية عند اهل الحضارة عموماً وللخص ما كتبه اهل البحث والتحقيق في شأنها

من اول الشرائع شريعة امتلاك الارض فقد ظن كثير من الكتاب ان امتلاك الارض لم يراع الا بعد ان تحضر الناس واستخدموا الفلاحة ولكن يظهر لدى البحث ان بعض الامم راعوا حقوق التملك قبل ان صاروا اهل فلاحة والبعض بقيت الارض عندهم مشاعاً بعد ان تحضروا واعتمدوا على الفلاحة في معيشتهم . فمن النوع الاول ما ذكر عن كلب بن وائل وهو انه حتى ارضاً ومنع دخول انعام غيره اليها وجر ذلك الى حرب البسوس كما هو معلوم . ولكن الغالب ان الارض التي يحميها اهل الوير تكون ملكاً للتبيلة كلها ولا تكون منقسمة بين افرادها . وهناك اهالي استراليا الاصليين وهم من اشد الناس توحشاً

يقتسمون الارض ويمتلك كل منهم جانباً منها ويورثه لابنائهم وينسبهم قبل ما هو  
 اما البنات فلا يرثن شيئاً من عقار آبائهن. وعندما اراض يكثر فيها الصعغ فاذا كان ابا  
 اجتهاء الصعغ صارت مشاعاً لكل القيلة التي يربتها ولا يجوز لاحد ان يدخلها في وقت آخر  
 غير مالكاها. وبعض الاستراليين يعدون مياه الانهار ملكاً ومن صاد صيداً في ارض غيره  
 او ماء غيره فعتابه الموت بخلاف اهالي اميركا فان الارض عندما مشاع. ولعل سبب ذلك  
 اعتماد اهالي استراليا على صيد الحيوانات الصغيرة التي يكثر وجودها في الارض ويسهل  
 صيدها بلا مطاردة طويلة بخلاف اهالي اميركا الذين يصيدون الحيوانات الكبيرة النادرة  
 السريعة العدو فيضطرون ان يجوبوا بلاداً كبيرة في التنشيش عنها ومطاردتها فلو اقسام  
 هنود اميركا ارضهم مثل الاستراليين لماات كثيرون منهم جوعاً والصيد كثير في اراضي  
 جيرانهم

والنوع الثاني وهو شيوخ الارض عند اهل الفلاحة والزراعة كثير قديماً وحديثاً.  
 ذكر تاشيتوس المؤرخ ان الارض الزراعية كانت مشاعة عند الجرمانيين القدماء يمتلكها  
 الواحد منهم بعد الآخر مناوبة وقال يوليوس قيصر ان الحكماء كانوا يفتنون الارض  
 ويوزعونها على الناس عاماً بعد عام. وفي بعض البلدان تكون الارض ملكاً في بعض شهور  
 السنة ومشاعاً في البعض الآخر ولم تنزل آثار هذه العادة في بلاد الشام حيث ترك الارض  
 بفحصها او بعد جنى الجانب الاكبر من اثمارها لترعى فيها المواشي وبأكل منها المنسكين  
 وابن السبيل. والارض المشاعة شائعة الى يومنا هذا في اكثر بلاد الشام فلكل بلد او قرية  
 مشاع مشترك بين اهاليها فهو مشاع بالنسبة اليهم وملك لهم بالنسبة الى غيرهم

وامتلاك الارض لا يستلزم ان يكون الناس قد عدوها من الامتعة التي تباع وتشتري حينما  
 اعتمدوا على شريعة التملك بل ان التملك سبق حسابات الارض منها بقرون كثيرة  
 ولم يشع حتى بيع الارض في اكثر البلدان الا منذ سنين قليلة مع ان بعض الشعوب  
 القديمة كالبابليين والاشوريين والفينيقيين والعبانيين كان يعملون به كما نعمل به نحن الآن  
 وقصة ابراهيم الخليل وابياعه مغارة المكهيلة لدفن زوجته سارة ضمن محدود من الفضة اقوى  
 دليل على ذلك ولم تنزل حجة بيع العقار محفوظة من ايام الاشوريين القدماء

والنوعية شريعة عامة في اكثر الممالك المتقدمة وهي احدث عهداً من التملك فان  
 صلوات الحكيم اول من ادخل الوصاية في بلاد اليونان ولم تكن تُعرف قبل عهده وكانت  
 محصورة حينئذ في من يموت بلا عقب. ولم يعمل اهالي اسبرطة بالوصاية الا بعد حروب

الموتة. ولا امر للوصاية في شرائع الجرمايين القدماء ولا في شرائع الهنود ولكن كثيرين من المشوشين يرعون الوصاية ويحسبونها حقاً شرعياً كما هالي طحيثي فانه اذا مرض احد هم دعا اولاده او اقاربه وقسم عليهم املاكه فيعني لم امتلاكها بعد وفاته كما قسمها عليهم والظاهر ان الناس عمدوا الى الوصاية اولاً في ما اذا مات احد هم ولم يخلف عبداً لكي يبقى امواله لمن بينهم يو بعد مائه فان الرومانيين مثلاً كانوا يعتقدون ان ارواح آبائهم تتردد على بيوتهم وتنتاب من روح القوت الذي يقدم لها فاذا لم يكن للانسان ابن تبنى آخر او اوصى بماله لاخر لكي يقرب له الفرائين غذاء لروحهم بعد موتهم. وكان عند الرومانيين باعث آخر بعثهم على ايجاد الوصاية وهو انهم كانوا يعتقدون بعض ابنائهم تمييزاً لهم وبما ان المعتوق لا يرث مع اخوته اوصوا له ببعض اموالهم

والوراثة شائعة على اختلاف الناس في كينيهاقين الهنود بحيث للابن سهمه من مال ابيه حال ولادته ولا يحق لابي بيع املاكه ما لم يشارك ابيه معه واذا بلغ ابنة رشده حق له ان يقسم عن ابيها ويصرف بتسيو كيف شاء واذا قسم الاولاد كاهم عن ابيهم بقي له نصيب اثنين منهم لا غير. وشرعية الجرمايين القدماء مثل شرعية الهنود. وقد تطرفت بعض الشعوب في ذلك فحرمت الاب من كل املاكه طالما يولد له ولد ذكر ومن ثم يصير الاب وصياً لابنه البكر وبصير البكر مالكا ورثاً على اخوته. وقد ظن السرجون لبك ان نحبة الرجل بالاضافة الى اسم بكره في كثير من البلدان تشعر بانضلية البكر ولذلك يضاف الاب اليه بعد ولادته

واذا ماتت امرأة في سيلان ورثها بنوها وبناتها اما البنون فالارث خاص بهم واذا مات احد منهم قبلها انقطع ميراثه واما البنات فيرثها من وورثاؤهن اذا متن قبلها. واما الرجل فيرثه اخوته واذا لم يكن له اخوة او اذا مات اخوته قبله ورثه اخواته وسبب ذلك ان الارض لا تباع عندهم فاذا تزوج رجل من غير قبيلته وانتقل الى قبيلة امرأته لم يمكنه ان يبيع املاكه ولا يتفلسا فيتركها لاخوته الذين في قبيلته. واذا تزوجت امرأة مرتين فما ورثته من امها يرثه اولادها الذين ولدوا لها من زوجها الاول

والغالب ان ميراث الاب ينتقل الى بكره وحده او يقسم بين اولادهم كلهم ولكن التشار يتكون ميراثهم كله للابن الاصغر بعد ان يعطوا اخوته جانباً من مقتنياتهم وبصرفهم. وقيل انه اذا مات رئيس من رؤساء الكفرة خلته احد ابناؤه الغصار واما الابن الاكبران فلا حق لها ان يخلهاه. وفي شمالي استراليا يرث الاولاد كلهم ذكورا واناثا ولكن الوالد

الاصفر يرث التعصب الأكبر . وبعض امالي الهند يتكون العقار كله للبكر والمشولات  
للولد الاصغر واما الاولاد الباقون فلا يرثون شيئاً بل يبقون عند اخيهم الأكبر كما كانوا في  
عهد ابيهم . وسيأتي بسط الكلام على بقية المحتوق في الجزء التالي

## معرض شيكاغو العام

يعلم أكثر القراء الكرام انه سينسخ معرض عام في مدينة شيكاغو احدي عواصم الولايات  
المتحدة الاميركية سنة ١٨٩٣ تذكاراً للاربع مئة سنة مرت منذ اكتشف خير ستوفورس كوايس  
قارة اميركا . وسيجمع في هذا المعرض الوف الوف من امم الارض كلها وتعرض  
فيها بدائع المصنوعات والاكتشفات والاختراعات وكل ما ابتكره العقل او اصطنعه اليد او  
انتجته الارض من جماد ونبات وحيوان

وقد قرّر رئيس الولايات المتحدة الاميركية فتح هذا المعرض بمناسبة عام نشرة في الرابع  
والعشرين من شهر ديسمبر (ك) سنة ١٨٩٠ قال فيو

”انا بنيامين هريسن رئيس الولايات المتحدة أعلن فتح معرض كولمبيا العام في غرة شهر  
مايو (ايار) سنة الف وثمانئة وثلاث وتسعين في مدينة شيكاغو في ولاية النيويورك ولا يقبل  
قبل يوم الثلاثاء الاخير من شهر اكتوبر (ت) من تلك السنة

وباسم حكومة الولايات المتحدة وشعبها ادعو جميع امم الارض لكي يشتركوا معنا في  
تذكار الامر الذي له المقام الاول في تاريخ الانسان ومنه فائدة دائمة له وذلك بان يعينوا  
تقريباً يتوبون عنهم في هذا المعرض وان يرسلوا اليه المواد التي غنيل خيرات ارضهم ومصنوعات  
بلادهم وعمارها ونجاحها“

وقد نجت امور هذا المعرض الى الآن نجاحاً يتوق انتظار الشارعين فيو فأعد له من  
عشرين الى خمسة وعشرين مليوناً من الريالات الاميركية . وعينت دول الارض مبالغ  
وافرة اعانة للذين يعرضون امنتهم فيو من رعاياها وسيجمع فيو اشهر العلماء والادباء  
ويعقدون مؤتمرات كثيرة تجت في جميع المسائل العلمية والمعايشية على انواعها وضرورها  
حتى يكون اعظم معرض انشئ في القرن التاسع عشر من جميع الوجوه

ومدينة شيكاغو ممتازة على كل مدن اميركا ومدن المسكونة بجبال . وقبها وسرعة فيوها  
ورواج الاعمال فيها فهي المدينة التي كانت منذ سنين قليلة قرية صغيرة فصار فيها الآن